

4

قصص الصحابة

امـرأة
من أهل الجنة

سليوى العناني

دار اللطائف
للطباعة والنشر

امراة من أهل الجنة

(بركة)

[أم أيمن أمي بعد أمي]

صدق رسول الله

ستحدث الآن عن واحدة من خير النسوة المسلمات اللواتي لازمن الرسول - عليه السلام - منذ لحظة مولده وحتى انتقاله إلى الرفيق الأعلى -

كان اسمها (بركة) .. فلما تزوجت أنجبت صبيا اسمه (أيمن) ومن يومها عرفت باسم (أم أيمن) .. وبهذا الاسم تحدثت عنها كتب السيرة ، ونحن عندما نتحدث عنها قبل ميلاد (أيمن) سندعيها (بركة) أما بعد ميلاد أيمن فستطلق عليها اسم (أم أيمن) .

...

كان شابا من أكرم شباب مكة .. فهو سليل أشرف عائلاتهما وابن أعرق قبائلها .. وكان الجميع يتطلع عليه - كلما غدا أو راح - باكبار وإعزاز واحترام .. فهو فوق كل

ما ذكرناه شابٌ وسيمٌ الطلعة .. في منسبه رجولة .. وفي حديثه حكمة وفي مجلسه أُنس ..

هو عبدُ الله بنُ عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي .

هو الشاب الذي افتداه أبوه بجائز من الإبل وعاء لنذر .. وكان هذا هو أغلى فداء دفعه أحدُ العرب حتى هذا التاريخ .

ولما بلغ عبدُ الله الرابعة والعشرين رغب أبوه أن يزوجه ، وكان لابد أن يبحث عن فتاة لا تقل شرفاً ولا حسباً عن ابنه .. وجد هذه المواصفات في أمة بنت وهب ابن عبد مناف سيد بني زهرة .

بأله من المختار .. أن يتزوج ابن سيد بني هاشم من ابنة سيد بني زهرة .. ونمضي الأسابيع بالعروسين مُسرعة .. وتشعر الزوجة الشابة بأعراض الحمل ، لتدخل سعة جديدة إلى حياة هذه الأسرة الصغيرة .

لكن إقامة الزوج مع زوجته لم تَطُلْ - فقد خرج في تجارة إلى بلاد الشام وترك عروسه في بيت أبيه ومعها جاريته الحبشية (بركة) .

مضت الأيام على أمانة بطيئة مثاقلة .. وكيف لها أن
تُسعد وقد سافر زوجها بعد أسابيع قليلة من زواجهما .

ويأتي الناعي بحبر وفاء فنى قريش .. زينة فنيك بني
هاشم .. وسم الطلعة ، جبل الأخلاق .. ونهاوى (أمنة) ..
وتنهار قواها . وتشعر أن الذنبا قد خلعت من الحُبِّ
والسعادة .. إلا أن (بركة) الجارية الحبشية كانت نعم المعين
وخير رفيق (لأمنة) .. فكانت ترعاها وتهنم بحملها ..
وتسري عنها بالحديث ..

كانت (بركة) ضمن الإرث المتواضع الذي تركه
(عبدُ الله) .. وكان هذا الإرث يشمل خمسة من الإبل وقطيعاً
من الأغنام .. وهذه الجارية الطيبة الحنون (بركة) ..

وتتقدم شهور الحمل (بأمنة) حتى تأتي ساعة المخاض .
وتقف (بركة) إلى جوار سيدتها تساعدُها وتخفف عنها
آلام الوضع حتى تستقبل المولود على يديها .. تُسرع إليه
تلفه وتحضنه في حُبٍّ .. ولم لا .. إنه الحبيب ابن الحبيب
والحبيبة ..

وأسرعت (بركة) بالوليد إلى جدِّه الذي كان جالساً معوار
الكمة فسرَّ به وقبله وطاق به مباركا .. ثم أحمله (عمداً) .

مكثا كانت (بركة) هي أول حضن ضمَّ محمدٌ بن عبد الله لينظر إلى جواره لا تغلظه حتى يلقى ربه .

ورضيت (آمنة) بفضل الله ورأت في ابنتها (محمد) خير عيوضٍ عن فقد زوجها الذي اختطفه الموت منها وهو ما زال شابا .. فضاعفت حنانها ورعايتها له ، وكان من عاداتها أن تسافر مرة في كل عام إلى (يثرب) حيث بني عدي (أخوال عبد المطلب جد ابنها محمد) .. وتزور فجر زوجها الحبيب .. وكان يصحبها في رحلتها ابنتها وخدمته (بركة) التي لم تكن تغلظها أبدا .

وتروي لنا (بركة) عن ذكريات إحدى هذه الزيارات (ليثرب) فنقول :

(أتاني رجلان من اليهود يوما نصف النهار فقالا : أخرجي لنا أحمد ، فأخرجته فنظرا إليه وقبلاه مليا ، ثم قال أحدهما لصاحبه : هذا نبيُّ هذه الأمة .. وهذه دارُ هجرته ، وسيكون بهذه البلدة من القتل والنسي أمرٌ عظيم .

قالت بركة : ووعيت ذلك كله من كلامهما) .

لقد بشرت كتبُ الأديان السماوية السابقة على الإسلام برسالة محمد وذكرت أوصاف هذا النبي وظيروف دعوته ..

إلا أن عددًا كبيرًا من أتباع هذه الأديان (خاصة اليهود) لم يؤمنوا بمحمد ولا بدعوته . وما هي (بركة) مربيته الرؤوم تروي هذه الرواية التي تؤكد علم هؤلاء بقرب ظهور نبي . وفي طريق العودة من إحدى هذه الزيارات - وكان (محمد) في حوالي السادسة من عمره .. مرغبت (آمنة) ثم احتفظها الموت لتُدْفن - هي الأخرى - بالقرب من (يثر) .

حزن الفتى (محمد) حزنا شديدا من أجل أمه .. بعياها ستحيطه الوحدة والوحشة .. فقد كانت هي مصدر حنان الوجود .. بعد فقد أمه .

لا بد أنه كان موقفا قاسيا على (بركة) التي استيقظت ليها مشاعر الأمومة .. وعَصَرَهَا الأُم لَحْلَ هذا الطفل الذي كُتِبَ عليه النتم من أبيه ومن أمه وهو لم يزل ابن السادسة .. وشعرت (بركة) بأنها أمام مسئولية كبيرة .. فهي جارية الطفل التي ورثها عن أبيه .. وهي المخلوق الوحيد المتفرغ لخدمته .

والى بيت جده (عبد المطلب) عاد (محمد) ومعه (بركة) التي ظلت ترعى شئونونه وتقوم على خدمته .. وكانت له

نعم الأم بعد أمه

ومن ذكريات هذه المرحلة تحكي لنا بركة هذه الحكاية :
(كنت أحضن^١ رسول الله صلى الله عليه وسلم ففعلت
عنه يوما فلم أدر إلا بعبد المطلب قائما على رأسي يقول :
يا بركة !

قلت : لبيك .. قل : أتدرين أين وجدت ابني (يعني
حفيدة محمدًا) .. قلت : لا أدري .. قل : وجدته مع غلمان
قريبا من السدرة ، فلا تغفلي عنه ، فإن أهل الكتاب
يزعمون أنه نبي^٢ هذه الأمة ، وأنا لا آمنهم عليه) .

إذا .. فقد كانت معرفة أهل الكتاب بشيوة (محمد) أمرا
معروفا ومنتشرا حتى إن جده كان شديد الخرص عليه ..
يوصي (بركة) ألا تغمض عينها عنه لحظة خشية أن
يتعرض له أحد بلخي . كان الجند (عبد المطلب) شديد
التعلق بحفيدة (محمد) فهو ابن (عبد الله) الفتى الذي لم
تشهد له مكة نظيراً في الجميل والحكمة والوسامة
والروانة . الفتى الذي انتداه أبوه بأعلى ما يفتني أب ابنه
حتى هذا التاريخ .

ونصاعف حناناً الجذ على حفيده بعد موت أمه (آمنة)
وتضاعفت مسئوليتُه عنه .. لكنه كان يرى في (بركة) خير
مُعين له على تحمل هذا .. فهي بديلٌ عن الأم حناناً
ورعاية .. وبديلٌ عن الأب مراقبةً وحماية .

وتروى الأخبار أن (عبد المطلب) .. وهو سيد قريش
وكبير أشرافها كان يُصيرُ على أن يجلس (محمد) إلى جواره
على الفراش المخصص له بينما يجلس باقي أبنائه بعيداً .
وكان كثيراً ما يربت على كتفه ويسمعه حلو الكلمات ،
وكانه يمتنى أن يُخفّف عن كامل هذا الصغير السّم اليتيم
الذي عاناه ..

ولحكمة لا يعلمها إلا الله وحده مات الجذ (عبد المطلب)
بعد عامين من موت (آمنة) لينتفضي آخر مصابيح الحنان في
حياة (محمد).

ويروى أن محمداً بكى جثّه بحرفه شديدة .. فقد كان يبكي
فيه الجذ الحنون .. والأب الذي مات قبل أن يُولد .. والام
التي حرمة الموت من دفء أحضانها .

لكن عَنِ (بركة) لم تكن تغفل لحظة عن الصبي .. ولم
تخل عليه بلحَبٍ والحنان والدفء وصدق الرعاية ..

وكانها تحاول أن تعرضه عما فقد .. مرة بعد الأخرى .

وبعد موت (عبد المطلب) انتقل (محمد) ومعه (بركة)
بيت عمه (أبي طالب) الذي كَفَلَ الصغير بعد جده ..
وتتمسك (بركة) بصغيرها ونصره على رفقة ورعايته
وتحرص على كل شئونه ..

ومما ترويه - رضى الله عنها - عن طفولة النبي صلى الله عليه وسلم.. نقول : (ما رأيت رسول الله شكاجوعا ولا عطشا لا في كعبه ولا في صيفه .. كان يغدو إذا أصبح فبشرت من ماء زمزم شربة .. فرمما عرضنا عليه العذاء فيقول : أنا شبعان) .

لم تكن طفولة النبي - عليه السلام - ولا حبه مثل
طفولة وصيّا باقي أفرانه وأترابه بل كان نسيجا خاصا
وطبيعة مختلفة. كان كثير التأمل - هائئ الطبع .. مبتعدا
عن أماكن اللهو والعبث .. كثير الصمت وكأنه يفتش عن
حقيقة يراها غائبة ..

وكان في نفس الوقت عازقا عن الطفوس والاحتضالات
الدينية التي تُقام للأصنام والأوثان .

فكما غصته الله من الهوى التي يزل فيها بعض

الشباب .. عصمه عن السجود للأصنام ..

تروي (بركة) أنه كان (بيوانة)^(١) صنم تحضره قريش
ونعظمه وتنسك له النساءك ويحلقون رؤوسهم عنده
ويعكفون عنده يوما إلى الليل ، وذلك يوما في السنة ، وكان
أبو طالب يحضره مع قومه وكان يكلم رسول الله - عليه
السلام - أن يحضر ذلك العيد مع قومه فيأبى رسول الله
ذلك ، حتى رأيت أبا طالب غَضِيباً عليه ورأيت عماته
غَضِيبَاتٍ عليه يومئذ أشد الغضب ، وجعلن يقلن : ما تريد
يا محمد أن تحضر لقومك عبداً ، ولا تُكثر لهم ؟

قالت : فلم يزالوا به حتى ذهب وغاب عنهم ما شاء الله
ثم رجع إلينا مرعوباً فزجها ، قالت عماته : ما دعاك؟.. فقل :
إني أخشى أن يكون بي لم - فقلن : ما كان الله ليتطبك
بالشيطان ، وفبك من يحصل الخير ما قبلك .. فما الذي
رأيت؟

قل : إني كلما دنوت من صنم منها غثل لي رجل أبيض
طويل يصيح بي : ورائك يا محمد لا تمسه .. فما عدك إلى عبد
لهم حتى تشبهوا^(٢)

(١) بوانة : منطقة قريبة من ساحل البحر الأحمر .

(٢) تشبهوا : دل عليه رحي الموت

كان (محمد) عليه السلام إنساناً رقيقاً مرمف الحس
صالح الشاعر .. فقد أدرك مدى إخلاص خلادته (بركة)
فإن يقلد ما تصنع من أجله ويشعر بعواطفها الصلابة
بحاله ..

فلما تزوج - عليه السلام - من السيدة خديجة أعتق
(بركة) تقديراً لما صنعت وعرفانا بحميلها .. إلا أن (بركة)
لم تترك بيت (محمد) ولم تجد في عيشها أي امتياز يجعلها
تفخره .. فقد كان سيدها يحسن معاملتها ويشعرها دائماً
بأدبيتها ويقلد عطاءها .. وهذا هو نبي الإسلام محمد ..
يكرم خدامه ويطعمه بما يطعم ويكسوه بما يلبس ولا يسمعه
ما يجرح إنسانيته ولا ينهره أبداً حتى لو أخطأ .

لقد أصرّت (بركة) على صحبة النبي وهي حرة .. كما
أحبت صحبته وهي جارية .. فقد كانت أقرب الناس إلى
رسول الله وكان يناديها (يا أمه) وكثيراً ما قل عنها .. (هذا
بقية أهل بيتي).

وتزوجت (بركة) من رجل من بني حارث يدعى عبيد
ابن زيد وأنجبت منه (إمين) الذي كانت تُسأل باسمه
وأصبحت تعرف (بأم أمين) ولما نزل الوحي على رسول

الله - عليه السلام - كانت (أم أيمن) و(أيمن) من أوائل من دخل الدين الحنيف وكان ولاؤهما للنبي الكريم ولاء لا نظير له .

وتقول بعض الروايات إن (أم أيمن) هاجرت بدينها مع من هاجر من المسلمين الأوائل إلى الحبشة ..

لكنها هاجرت بكل تأكيد مع النبي إلى المدينة ..

ويعتبر (عبد بن زيد) زوج (أم أيمن) وتسبقت في قلب النبي مشاعر البتوة تجاه المرأة التي يقول عنها (أمي بعد أمي) ويشعر بمسئولية حمايتها وتجاه استقرارها وأمنها .. فيرى أنه يجب عليه أن يزوجه .

جلس النبي يوما بين أصحابه وفيل لهم : من سره أن يتزوج امرأة من أهل الجنة فليتزوج (أم أيمن) .

ويذكر (زيد بن حارثة) حبيب رسول الله ومولاه .. ليتزوج هذه السيدة الفاضلة .

كان (زيد) لا يقل فضلا عن (أم أيمن) . فهو من السابقين إلى الإسلام وهو الذي أثار البقاء مع النبي عن العودة لأهله ، وهو الذي قالت عنه السيدة عائشة : (ما بعث رسول الله زيد بن حارثة في جيش قط إلا أسره

عليهم . وألّفني حيا بعد الرسول لاستخلفه .

وها هو (زيد) يخلو ليتزوج امرأة تقية صالحة رغم أنها
.. سنا وليس لها مال ولا جمل يغري شاباً في مثل سن
(زيد) .. لكنه اختارها لنقاها وورعها وحُسن إسلامها ..
وهو يأخذ بنصيحة رسول الله (أظفر بذات الدين) .. وقد
ظَفَرَ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ بِذَاتِ الدِّينِ الَّتِي قَالَتْ عَنْهَا الرَّسُولُ :
(امرأة من أهل الجنة) .

ويشعر الزواجُ فتى مسلماً تشهدُ له ساحاتُ القتالِ في
سبيل الله والجهادِ لنصرة دينه هو (أسامة بن زيد) الذي قاد
جيشَ المسلمين في عديدٍ من المعارك والمواقف وخرج فيها
جميعاً منتصراً .

فهل اقتصر دور (أم أيمن) في الحية على حضانة النبي
وخدمته ثم حضانة أولادها (أيمن) و(أسامة) وتربيتهم على
سبيل الإسلام حتى أصبحا من أعلام الدعوة الإسلامية ؟
لا .. لم يكن هذا هو دور أم أيمن فقط .. وهو دور عظيم
ورائع أدته هذه السبلة العظيمة على غير وجه ..

لكنها كانت فوق هذا الدور محاربة صالحة .. وقد
حَضَرَتْ كُلَّ الْمَشَاهِدِ وَالْغَزَوَاتِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ .. وَكَانَ دَوْرُ

النساء في هذه المعارك خلف صفوف المقاتلين دائما ..

في أحدٍ .. كانت (أم أيمن) مع غيرها من النساء تداوي الجرحى وتسقي المحاربين .. وفي خيبر كانت تحارب مع المحاربين وتخدم المقاتلين خلف صفوف القتال حتى إن النبي - عليه السلام - كان يعطيها حقها من (الفىء) (*) .

عُمرت (أم أيمن) حتى جاوزت التسعين - وشهدت وفاة النبي - عليه السلام - ووفاء أبي بكر وعمر - وكان بكائها على النبي بكاء حارا .. فهو الابن الحبيب .. وهو الرسول الكريم .

عاشت (أم أيمن) تذكر كيف كان النبي يمازحها - فقد طلبت منه يوما أن يحملها - أي يعطيها ناقةً تركبها في سفر - فقال عليه السلام : أحملك على ولد ناقة .. فظنت أنه يريد أن يحملها على فصل (**). فقالت : يا رسول الله .. لا بطبقي ولا أريد - فقال : لا أحملك إلا على ولد ناقة - وكان الرسول بمزح ولا يقول إلا الحق - فالإبل كلها زلد

ناقة ..

(*) الفىء : غنائم الحرب
(**) الفصل : هو ولد ناقة

ومن المواقف النبوية التي نقلتها لنا (أم أيمن) أنه - صلى الله عليه وسلم - قال :

لَا تُشْرِكْ بِالله شَيْئًا وَإِنْ عُذِبْتَ وَإِنْ حُرِقْتَ ، وَأُطْعِمَ وَالذِّمَّكَ وَإِنْ أَمْرًا أَنْ تَخْرُجَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ هُوَ لَكَ فَتَخْرُجُ مِنْهُ ، وَلَا تَتْرُكْ صَلَاةً مَكْتُوبَةً عَمْدًا .. فَإِنْ مِنْ تَرَكَّ الصَّلَاةَ عَمْدًا فَقَدْ بَرَأَتْ مِنْهُ ذِمَّةُ اللهِ .. وَإِيَّاكَ وَالْخَمْرَ .. فَإِنَّهَا مِفْتَاحُ كُلِّ شَرٍّ ، وَإِيَّاكَ وَمَعْصِيَةَ اللهِ فَإِنَّهَا مُوجِبَةٌ لِسَخَطِ اللهِ وَلَا تَغْلُلُ^(*) وَلَا تَقْرَ يَوْمَ الزَّحْفِ وَإِنْ هَلَكْتَ وَقَرَّ أَصْحَابُكَ ، وَإِنْ أَصَابَ النَّاسَ مَوْتَانِ^(**) وَأَنْتَ فِيهِمْ فَانْتِهِ ، وَلَا تَنْزِعِ الْأَمْرَ أَهْلَهُ ، وَإِنْ رَأَيْتَ أَنَّكَ لَكَ ، وَأَنْفَقَ مِنْ طَوْلِكَ^(***) عَلَى أَهْلِ بَيْتِكَ وَلَا تَرْفَعُ عَصِيكَ عَنْهُمْ أَبَدًا ، وَأَخْفِهِمْ فِي اللهِ عِزَّ وَجَلَّ " صَدَقَ رَسُولُ اللهِ .

(*) الغلول : هو الخيانة .

(**) الموتان : هو الموتان .

(***) الطول : العنق والسرير .